

شخصية الحبيب بورقيبة في مصادره وشهادات معاصريه

The personality of Habib Bourguiba in his sources and the testimonies of his contemporaries

أ.د. سعيد جلاوي*

المخبر المتعدد التخصصات في علوم الإنسان والبيئة والمجتمع، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة البويرة، البويرة 10000، (الجزائر). s.djellaoui@univ-bouira.dz
تاريخ الاستلام: 2024/06/10؛ تاريخ القبول: 2024/09/02؛ تاريخ النشر: 2024/12/22

ملخص:

تعالج هذه الدراسة شخصية الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة الذي ولد في مطلع القرن 20 في ظروف وبيئة استثنائية تكون في الداخل والخارج وقاوم نظام الحماية في تونس وحررها وأصبح يتمتع برصيده تاريخي كبير وقاد بلاده طيلة أربعة عقود من الزمن، تعددت ألقابه في كتابات معاصريه من أبناء بلده من النخب السياسية من الفاعلين والنافذين السياسيين، فلقب "بالحاكم بأمر الله، وبالمجاهد الأكبر، وبالزعيم" فسالت أعلام هؤلاء في مؤلفات ومذكرات وشهادات حول هذه الشخصية المحورية الاستثنائية التي صنعت الجدل محليا ودوليا. فما هي الظروف البيئية والعوامل الاجتماعية التي ساهمت في صنع هذا الرجل؟
كلمات مفتاحية: الحبيب بورقيبة؛ تونس؛ الفاعلين السياسيين.

Abstract:

This study deals with the personality of the Tunisian President Habib Bourguiba, this exceptional and charismatic personality. He was born at the beginning of the 20th century in exceptional circumstances and environment at home and abroad. He resisted the protectionist regime in Tunisia, liberated it, and came to enjoy a great historical reputation and led his country for four decades. In the writings of his contemporaries, among his countrymen, the political elite and influential actors, he was called "the ruler by the command of God, the

greatest mujahid, and the leader.” So the pens of these people asked in writings, memoirs, and testimonies about this pivotal, exceptional figure who created controversy locally and internationally. What were the circumstances? Environmental and social factors that contributed to creating this man?

Keywords: Habib Bourguiba; Tunisia; political actors

المقدمة:

لقد ملأ الحبيب بورقيبة الدنيا وشغل الناس كشخصية استثنائية وكأريزمية ولقب بالمجاهد الأكبر والزعيم بحكم رصيده النضالي في مقاومة فرنسا وتحرير تونس، مما أثار انشغال الفاعلين السياسيين من النخبة التونسية من وزراء وقيادات وإعلاميين، أصدروا مذكراتهم بشأن هذه الشخصية المحورية مثل طاهر بلخوجة في كتابه الحبيب بورقيبة: سيرة زعيم، وكتاب بالفرنسية العشريات الثلاثة لبورقيبة، وعمر اوشاذلي: بورقيبة كما عرفته، والصابي السعيد: بورقيبة مسيرة شبه محرمة، ومحمد الصياح بورقيبة مؤسس الدولة الجديدة، وكامل، (يقي): رسالة بورقيبة والشاذلي لقلبي أضواء من الذاكرة: لحبيب بورقيبة، إلى جانب شهادات حية أجريتها بنفسه مع بعض وزرائه أمثال الطاهر بلخوجة ومحمد مزالي، وبشير بن سلامة... الخ هذا الزخم الكبير من الشهادات المطبوعة والشفوية وما صدر من خطب وكتب عن بورقيبة نفسه فأثارت فضولنا بعد التعرّيج عليها وإطلاعها فأردنا من خلال ذلك معرفة شخصية هذا الرجل وأهم الوسائط التي أسهمت في تنشئته وأهم انتماءاته العائلية والعوامل التي ساهمت في تكوين شخصيته الاجتماعية والفكرية، والأحداث التي صقلت شخصيته وجعلته في مستوى الوعي السياسي صنعت منه رجلا تحمل مسؤولية جسام نجح في تطبيق طريقة اصطلاح عليها "بالبورقيبية" - هي سياسة تقوم على مبدأ خذ وطالب والمرحلية والذي يطلق عليه اليوم بالواقعية والعقلانية-. مكنته من ضبط مخططات الكفاح الوطني وافتكاك استقلال البلاد.

1. بورقيبة ورواية النسب:

الحبيب بورقيبة من مواليد 3 أوت 1903 حسب الوثائق. لان دفاتر الحالة المدنية في مدينة المنستير من أسرة متواضعة فتاريخ ميلاده محل خلاف. وهو ما يؤكد "الطاهر

بلخوجة" القائل: "أن بورقيبة يدعي أن هذا التاريخ المتداول هو تاريخ ولادته"⁽¹⁾ لكن لا أحد يعرف العام الذي ولد فيه على وجه الدقة، حيث أن بعض الوثائق ترجع ميلاد بورقيبة ما بين 1901 و1902 بحكم دخوله إلى المدرسة عام 1907 لكن التاريخ الرسمي المعتمد هو 03 أوت 1903⁽²⁾

أما من حيث التسمية فهو محل جدل أيضا بالرغم من أن جميع الأوراق الرسمية تحمل اسم الحبيب بورقيبة وحتى المتعارف لدى الجميع. إلا أن عثورنا على إحدى الوثائق المطبوعة التي دونت بخط يد بورقيبة وتوقيعه بتاريخ 17 مارس 1934. كان يستعملها عندما كان محاميا تحمل اسم محمد الحبيب بورقيبة، والمرجح أن اسم محمد الذي يحمل دلالة إسلامية (من خير الأسماء ما حمد أو عبد) في وقت يسعى فيه لاستعمار إلى طمس الشخصية التونسية، أسقط لتسهيل مهمة تسجيله بالمدرسة علما أن جل أخواته يحملون الحمد.⁽³⁾

أما بالنسبة للاسم العائلي "بورقيبة" فإن بعض المصادر التي كتبت في فترة ما بعد بورقيبة إن أقرت بطفولة اليتيم والتفوق إلا أنها شككت في الانتماء العرقي لهذه الشخصية ربما يعود ذلك إلى ربطها بتوجهات بورقيبة السياسة غير المنسجمة مع التوجه العربي حيث يرجع البعض أن "عبارة" بورقيبة" هي كلمة البانية الأصل وتعني -الأسير- وأن عائلة بورقيبة هي عائلة بلقانية انتقلت بعد الفتح العثماني إلى تونس بعد أن اعتنقت الدين الإسلامي متخلية عن عقيدتها الإسلامية أو ربما اليهودية⁽⁴⁾

كما توجد رواية أخرى تقول إن "جد بورقيبة جاء من مصراتة الليبية في نهاية القرن التاسع عشر وجدته خدوجة مزالي جاءت من المغرب وهي بربرية من منطقة السوس المغربية⁽⁵⁾ فالاحتمال إذن أن أصول الحبيب بورقيبة يعترها الشك بأنها ليست تونسية لا من جهة الأب ولا من جهة الأم ولم نعثر أصل اللقب العائلي "بورقيبة" في الألقاب ذات الأصل

(1) Tahar,(Belkhodja): Les trois décennies Bourguiba, Ed arcantres –publisud 1999,p30.

(2) الحبيب بورقيبة: حياته جهاده ص 1

(3) محمد الهاشي، (عباس): المرجع نفسه، ص 91.

4عمار السوفي: تاريخ الحركة الوطنية التونسية: وثائق الدستور الجديد إزاء المحنة الأولى، دار العمل تونس 1979، ص 38 – 39. (4)

(5) معزة، (عزا لدين): فرحات عباس والحبيب بورقيبة: دراسة فكرية وتاريخية مقارنة 2000/1899 أطروحة دكتورة جامعة منتوري قسنطينة 2009.(نسخة الكترونية لا تحتوي على أرقام الصفحات)

الامازيغي أو العربي الذي. يعود إليه معظم سكان شمال أفريقيا فان لم يكن هذا اللقب نسب للعائلة عن طريق الكنية أي تصغير لكلمة رقبة فنسبت هذه الكنية إلى أحد أجداد الزعيم.

والإشارة هنا غامضة فهي لا ترشدنا إلى نسب أجداده ولا احد يعرف بالتحديد جذور عائلته البعيدة، فهناك من يعتقد أن "أسرته من ألبانيا، فيما يؤكد آخرون أنها من أصل يوناني من جزيرة سالونيك"⁽¹⁾ فبورقيبة نفسه كان يقول لزوجته الأولى " ماتيلد" والتي أصبحت فيما بعد تعرف بمفيدة ولبعض أصدقائه ووزرائه أن عيونه الزرق " لا يمكن أن تنتهي إلى عيون العرب السوداء"⁽²⁾، لكن "محمود المطاطي" في مذكراته يصفه خلال لقائه الأول به في باريس وهو في العاشرة من عمره أنه "كان له عينان لونهما رمادي أخضر، تبدوان واسعتين في وجهه التّحيف". لكن هذه الملامح لا يمكن أن تكون معيار انتساب. فلذلك الرأي الأكثر قوة هو ذلك الذي يقول أن جذور عائلة بورقيبة تعود إلى ليبيا، و"تتيح مقارنة الأسماء هنا بالتأكد أن اسم بورقيبة مركب على النحو الذي تركب به بعض أسماء العائلات الليبية مثل: بورجيلية وبوعونية وبوسنينة، وبوكريشه، وبوذينة، وبوروزس، وبوخشيم"⁽³⁾ وهي الرواية التي يؤكدها وزير الثقافة السابق في عهد بورقيبة⁽⁴⁾ وان بورقيبة نفسه يؤكد أصوله الليبية وأن "معمر القذافي" كان مرارا يكرر بأن بورقيبة من مصراتة الليبية على حد قول طاهر بلخوجة الذي يؤكد أن حتى أصل التسمية بلخوجة من أصل تركي⁽⁵⁾ بينما بلخوجة يقول: أن عديد المسؤولين التونسيين كلهم عنهم أصول تونسية تركية البانية يونانية لان تونس وقع عليها تدفق العديد من الحضارات وأكثرها تأثيرا هي الحضارة التركية"⁽⁶⁾. لكن في كل هذا أن الرواية الأقرب إلى الحقيقة هي الأصول الليبية.

وبالنسبة للخصائص الفزيولوجية لبورقيبة فانه ورث من والده زرقة العيون وبياض البشرة، ومن والدته قوة التصميم والمثابرة، أما قامته الصغيرة (متر و64 سنتمرا والتي كثيرا

(1) الصافي، (سعيد): بورقيبة سيرة شبه محرمة، الطبعة الأولى 2000م، ص34.

(2) نفسه، ص 34.

(3) الصافي، (سعيد): بورقيبة سيرة شبه محرمة مصدر سابق، ص 33.

(4) لقاء خاص مع بشير بن سلامة. يوم 28 / 12 / 2011 بمقر سكناه بالمدين الجديدة بتونس العاصمة.

(5) لقاء خاص مع طاهر بلخوجة يوم 20 ماي 2015 بمنزله الكائن بنهج اليان صفاري ببلفيدار بتونس العاصمة.

(6) لقاء خاص مع طاهر بلخوجة . وم 20 / 05 / 2015 بمنزله الخاص الكائن شارع اليان صفاري بمدينة بلفيدار بتونس العاصمة.

ما كانت محل تهكم لدى إخوته الكبار كقولهم البيضة الفاسدة هي دائما البيضة الصغيرة " أو "حبة العنقود الأخيرة غالبا ما تكون صغيرة وصفراء " فسوف تجعل منه رجلا قلقلًا وطموحا إلى ابعد حد والى درجة انه سيكتشف مبكرا أن القامة تزداد طولًا كلما صعد صاحبها إلى فوق المنابر أو فوق الأعناق" (1)

2. بورقيبة: التنشئة الاجتماعية والتكوين العلمي:

نشأ لحبيب بورقيبة في أسرة مستقرة في جربة ثم انتقلت إلى حي يعرف بحي الطرابلسية على تخوم مدينة المنستير، وعمل والده علي بن الحاج محمد بورقيبة جنديا في جيش الباي وتزوج سنة 1880 تقريبا بالمرأة فطومة بنت احمد خفشة وأما خدوجة بنت مزالي حيث كان الحبيب سابع أخوته نشأ في عائلة متواضعة ورغم قساوة الحياة على الأسرة الحق ابنه الحبيب بأخويه بالمدرسة الصادقية بتونس العاصمة وكان في الخمسة من عمره. ولاق عذاب كبير نتيجة خلاف في أفراد عائلته على مزاولة الدراسة أو عدمها، وكان يتعرض للمرض باستمرار كان صديق حميم "لطاهر صفر"، حيث كان بورقيبة بقضي كل صيفه عند عائلة طاهر صفر وهي عائلة محافظة تركية" (2).

كان والده عندما ولد على درجة من الفاقة، كان يتمتع بمرتب زهيد ومنحة تقاعد من خدمة الجيش لم تتجاوز 45 فرنكا سنويا بالإضافة لما يدر عليه 21 أصلا زيتونا، ثم اشترى والده 111 أصلا من الزيتون في قرية منزل حرب، هذا فضلا عما توفره له خطة أمين فلاحي، وهي الخطة التي أسندها إليه الباي محمد الصادق باي اعتبارا لخدماته في الجيش الذي جنده إليه العربي زروق بالقوة، وبلغ فيه رتبة شاوش ثم تمت ترقيته لرتبة ملازم كون أن الحبيب أصغر إخوته، اعتنى به، فكان والده يشعر بالحيرة في مصير ابنه، وعلى هذا الاعتبار قرر توجيهه إلى العاصمة ليقيم عند أكبر إخوانه محمد لأنه بلغ سن الشيخوخة ولم يعد قادرا على الاعتناء به والإشراف على تعليمه، واضطر لمفارقة والدته، ولم يتجاوز الخامسة، وهو ما حز في نفسه وجعله في أشد الحاجة لحنوها وعطفها وأقام عند شقيقه محمد الذي كان صارما حازما في تربيته فكان يذهب إلى المدرسة ويشق عدة أحياء في طريقه إلى المدرسة

(1) سعيد، (الصابي): المصدر نفسه، ص 37.

(2) انظر شهادة محمد المصمودي في "زمن بورقيبة" (وثائقي من إنتاج قناة العربية)، الحلقة الأولى، 2011.

ينتعل حذاء مثقوبا⁽¹⁾.

كان والده حريصا على حثه على الجد والمثابرة في تعليمه وتشجيعه على الدراسة حتى تحصل في سنة 1913 على الشهادة الابتدائية، وشارك في مناظرة الدخول إلى الصادقية ونجح، ويختم بالشهادة لانتفاء التعليم. كانت فرحة والدته لما بلغها خبر نجاحه⁽²⁾. لكن لم تطل فرحة أمه، التي وفها المنية تلك أول صدمة أصابت الطفل وهو في المدرسة بعيد عن أهله، في 17 نوفمبر 1913 تغيرت الأوضاع بعد إحرازه في السنة الثالثة على شهادة "البروفى" اللغة العربية سنة 1919 وهو العام الأخير قبل الإحراز على "الديبلوم" لكنه في العام نفسه أصيب بمرض السل من جراء الخصاصة⁽³⁾ كلفته إقامة شهر بالمستشفى، ثم تحول إلى مدينة الكاف أين يوجد شقيقه محمد وانقطع عن الدراسة في بداية السنة السادسة، ثم استرجع عافيته، فواصل دراسته فوق ترسميه في بداية دخوله إلى "الليسي كارنو" في قسم أول⁽⁴⁾. "أحرز على الجزء الأول من البكالوريا سنة 1923"⁽⁵⁾، وكان في مادة الحساب متفوقا على الفرنسيين والإيطاليين والمهود، وذهب في ظنهم أنه سيختار شعبة الرياضيات⁽⁶⁾، وبلغ مبتغاه بين التطلع في العلوم الرياضية وفي الأدب والفلسفة لأنها في نظره أساس التربية الحقة ومحور تهذيب العقل ذلك من الحصول على الجزء الثاني من البكالوريا سنة 1924⁽⁷⁾ بملاحظة حسن، لكنه لم يخر ذلك وفضل شعبة الفلسفة، وكان الأول في السنة الأخيرة فيها أيضا لأنه أدرك أهميتها بدافع الشعور بالواجب الوطني، وقد قام في المعهد الصادقي بأعمال سياسية سنة 1919 وهو في السنة الثانية بمناسبة زيادته للثعالي على حين عودته من المشرق، وشارك في سنة 1922 في مظاهرة 5 أفريل، وهذا قبل أن تخارمه فكرة إخراج فرنسا ومواجهة الحماية، ولهذا كان اختياره لشعبة الفلسفة بمثابة إعداد لفكره، وحتى لا يبقى في اختصاص الرياضيات بعيدا عن خوض المعركة الحاسمة في مستقبل امتحان البكالوريا فإن ما أبداه من امتياز في الإجابة في مادة الشفاهي بدون أن يتمتع بالوقت المسموح به لجمع

(1) محمد الهاشي، (عباس): المصدر السابق، ص 92.

(2) نفسه، ص 94.

(3) بورقيبة، (الحبيب): لحبيب بورقيبة: حياته جهاده، كتابة الدولة للإخبار والإرشاد، تونس، 1966. ص 21.

(4) عباس محمد الهاشي: المصدر نفسه، ص 95.

(5) بورقيبة، (الحبيب): حياته جهاده، ص 23.

(6) عباس محمد الهاشي: المصدر نفسه، ص 95.

(7) أرشيف مركز التوثيق القومي ببيوغرافيا الشخصيات تحت رقم: 171/000. لحبيب بورقيبة رقم 029/4-18 A.

أفكاره قبل الجواب ونصيحة شقيقه محمود على التروي والتريث قبل الإجابة أدى به إلى النجاح، وفاز بالدرجة الأولى في قائمة الناجحين وذلك في سنة 1924 وأن التلميذ الحبيب بورقيبة، بقدر ما كان شغوفا بدراسته لمادة الفلسفة بكل مذهبها الفلسفية والأخلاقية وعلم النفس، كان في مرحلة تعليمه بالصادقية مهتما بمختلف المواد التي كان يتلقاها من عدة أساتذة، فتلقى الدروس في اللغة الفرنسية من الأستاذ كوليار وإليه يرجع الفضل في إتقانه اللغة الفرنسية ولم تزد معرفته بهذه اللغة لما انتقل إلى "الليسي كارنو"⁽¹⁾.

كما تتلمذ على عدة أساتذة ومشايخ من جامع الزيتونة أمثال العلامة محمد العزيز جعيط وحبب إليه العربية والشعر والمعلقات السبع، كما كان من بين شيوخه الشيخ حميدة النيفر وابنه البشير، كما تعلم العربية على يد أستاذه موريان الفرنسي، ويرجع الفضل إلى أستاذه "محمد الأصرم" لتجدرهم في اللغة العربية فكان يثير غيرهم على اللغة العربية،⁽²⁾

وما أن ظفر بورقيبة بالجزء الثاني من البكالوريا كما أشرنا سالفاً حتى "أزعم الرحيل إلى باريس لاستكمال دراسته. فسافر في خريف 1924، فانخرط بكلية الحقوق بكونه كان حريصاً على معرفة أحوال المجتمعات البشرية وسنن عيشها والوقوف على أنظمتها وتشريعاتها"⁽³⁾

ولم يكتف بدراسة الحقوق لتتوسع معارفه سجل في كلية الآداب "بالسربون" ومعهد العلوم السياسية حيث زاول دروسه في شعبة المالية العامة، وفي عام 1927 تحصل على الإجازة في الحقوق وبعد عامين على شهادة العلوم السياسية. وظل طيلة الدراسة على اتصال بحركة "نجم شمال أفريقيا" التي كان يترأسها "مصالي الحاج"، كما كان يتردد كثيراً إلى الاجتماعات العامة التي كانت تعقدها الأحزاب اليسارية⁽⁴⁾. لكن حسب الصافي السعيد فانه "لم يقترب كما فعل بعض رفاقه من أوساط نجم شمال إفريقيا التي كانت تعتبر مدرسة ممتازة لكثير من المناضلين المغاربة الذين انضموا إلى صفوف مصالي الحاج فإن الحبيب بورقيبة لم ينظم إلى هذا الحزب وهو ما سيؤهله للوقوف دائماً في الوسط"⁽⁵⁾.

(1) عباس محمد الهاشي: المصدر السابق، ص 95-96.

(2) بورقيبة، (الحبيب): لحبيب بورقيبة: حياته جهاده، ص 26.

(3) نفسه، ص 26.

(4) بورقيبة، (الحبيب): حياته جهاده، ص 26.

(5) سعيد، (الصافي): المصدر السابق، ص 48.

وهذا النشاط كله ساهم لا شك في تكوينه نهيك عن تأثير الأحداث التي عاشها والتي التي سنفصل الحديث عنها في تعرجات مساره الذاتي.

3. تعرجات المسار الذاتي لبورقيبة.

لقد تأثر بورقيبة بعدة وقائع حدثت في بيئته سواء سمعها من مصادر كثيرة سيما أفراد عائلته أو عاشها بنفسه قريبة كانت أو بعيدة كان لها الأثر في نفسية هذا الرجل. فما هي هذه الوقائع والأحداث؟

المتتبع لمراحل ميلاد ونشأة الحبيب بورقيبة كما سلف الذكر يجد انه تلقى عدة صدمات عنيفة كان لها أعظم الأثر في نفسيته منها فقدان أمه الذي زرع كيانه وفي عمره 10 سنوات ليعيش قهر اليتامى⁽¹⁾.

كذلك تأثر الحبيب كثيرا بسوء المعاملة التي كان يتلقاها التونسي، حيث يقول: " عندما يخرج إلى باب البحر يوجد مقهى زبائنه غير عرب مهما كانت قيمتهم العلمية، فلا يدخله التونسي، يكفي أن يحمل على رأسه شاشية أو طربوشا ليصبح غير مرغوب فيه"⁽²⁾.

كما تأثر الحبيب بما كان يحيي له والده عن ماضيه وأسباب فقر العائلة التي ترجع إلى سياسة نظام الحماية الذي أهان ونكل وصادر أملاك التونسيين على رأسها عائلة بورقيبة هذا الواقع الذي اكتشفه هو شخصيا، عندما قال: " أن المرة التي صدمت فيها فكانت عند اكتشافي واقع التونسي وما يعاينه من ظلم في حادث سنة 1911، كنت عائدا من جهة مدرج باب البنات، فإذا بالقصة تعجّ بالجنود فسألت عن جليلة الأمر فقيل لي أن واقعة حدثت في "الزلّاج" عمّ من جرائها الاضطراب"⁽³⁾ حيث واشتبك فيها التونسيون بالإيطاليين وحكموا وصدرت في حقهم أحكام قاسية بعضها بالإعدام ومنهم المسمى " الجرجار" ونفذ فيهم الحكم على رؤوس الملا بساحة باب سعدون بواسطة المقصلة وفصلت رؤوسهم عن أجسادهم وألقيت الرؤوس إلى جانب والأجساد كما تم نفي جماعة جريدة "التونسي، بالإضافة إلى حادثة الإضراب الذي شنه التونسيون على ركوب التروماي وما جد من مواقف الإيطاليين والمتجنسين، فهذه الحادثة وحادثة الزلّاج كانتا من الأحداث البارزة التي أثرت في شخصية

(1) عباس محمد الهاشمي: المصدر السابق، ص 97.

(2) نفسه، ص 98.

(3) انظر خطاب للحبيب بورقيبة يوم 7 نوفمبر 1959 بمناسبة الذكرى الثامنة والأربعين لحادثة الحادثة الزلّاج.

الحبيب بورقيبة منذ عهده بالتعليم الابتدائي⁽¹⁾.

هناك حادث آخر جرى سنة 1917 وهو تلميذ في الصادقية كان له كبير الأثر في نفسه هو الجنازة الكبيرة التي شيعت المرحوم البشير صفر، في هذه الجنازة رافق الحبيب والده إلى مقبرة الزلاج، وفي حين كان يجري الدفن فجأة امسك الأب بيد ابنه واندفع يبكي بطريقة ملفتة للأنظار حتى حسبه من أقارب الميت ولعل بعضهم خاله والد الميت، وأدرك من حينها انه كان ذا نفسية وطنية، فقد حزن على خسارة البشير صفر، وبكى عليه وعلى مصيره الذي انتهى إليه بسبب القهر الاستعماري، بالإضافة إلى ذلك أحداث أخرى، منها عودة الشيخ "عبد العزيز الثعالبي" من المشرق عام 1919 ومشاركته في احتفال بقدمه مع أصدقائه في الصادقية، لا سيما وأنهم سمعوا بما وقع بينه وبين المحكمة الشرعية من مشادات في مطلع ق 20 إثر صدور كتابه الذي ألفه بمعية المحامي ابن عطار وعنوانه "الفكر التحريري في القرن" وقد عد رجال الشرع أن عمله هذا من قبيل الكفر، وكادوا أن يحكموا عليه بالإعدام لو لا فرنسا التي أنقذته في آخر ساعة. وكان الثعالبي منتما قبل الحرب العالمية لجماعة جريدة «التونسي» وكان هو المشرف على النسخة العربية كما سبق الإشارة إليه⁽²⁾.

4. انتماءاته والفكرية والفلسفية:

إن التكوين الثقافي للفاعل السياسي يمثل متغيرا مؤثرا في تشكل شخصية القائد هناك إذن عدة أسس مذهبية ساهمت في بلورة فكر ووعي بورقيبة وهو الرجل الذي "يريد أن يصبح المحامي الناجح عن قضية. والصانع المتحمس لبناء قطر لن تكفيه الدراسة في فرنسا أو مخالطة أوساط حزب اليسار والعلاقات المتينة مع رابطة حقوق الإنسان، بل إنه في حاجة أعسر تحقيقا هو أن يكون مهيا لهذا العمل". بأن تكون مكونا كالقائد أو كفاعل. وأن التكوين الثقافي للفاعل السياسي يمثل متغيرا⁽³⁾ ذا تأثير ما في تشكيل شخصية القائد وتصوره من ناحية، وهيكله مجتمعه الذي يقود مسيرته من ناحية أخرى⁽⁴⁾. فتجربة بورقيبة مع اللغة الفرنسية وسفره إلى فرنسا لإكمال دراسته الجامعية، تشكلان تجربة، تمثل بدورها

(1) محمد الهاشي، (عباس):المصدر نفسه، ص 99

(2) محمد الهاشي، (عباس):المصدر السابق، ص 101.

(3) كاميل، (بيقي):رسالة بورقيبة، ترجمة رياض المرزوقي، و توفيق بن عامر، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، ص 54.

(4) محمود، (الذوايدي):التخلف الآخر الأطلسية للنشر، تونس جانفي 2002، ص 146

طريقة لصنع العالم الخاص. ولعل العالم الخاص ببورقيبة أيام سعيه لاستيعاب النظريات السائدة في العالم، وبالتحديد التعمق في ثقافة المستعمر، هو الحلم بالدولة الوطنية التونسية، وكيفية توظيف بعض الأفكار سواء في مرحلة تحقيق الحلم والقضاء على الاستعمار، أو في مرحلة بناء الدولة الحديثة، التي وصفها بمرحلة " الجهاد الأكبر" ⁽¹⁾.

قد يبدو أن تعلم اللغة الفرنسية نظريا، والدراسة في مدارج جامعات فرنسا، ليس بالمؤشر الكافي والمقنع، حتى نعلل بشكل آلي تأثر بورقيبة بالثقافة الفرنسية. أما إذا تأملنا مدى آثار وبصمات الثقافة الأوروبية والفرنسية خصوصا، فإنه قد يصبح الربط حتميا، بل وضروريا أيضا، وحتى نفهم الخلفية الثقافية والفكرية التي ساهمت في إنتاج هذه الشخصية. فالحبيب بورقيبة من الشخصيات التي اهتمت بفنون المسرح الذي مارسه وأخذ أصوله عن شقيقة "محمد بورقيبة" الذي كان يدير فرقة الشهامة العربية حيث شاهد رفقة شقيقه عدة روايات من بينها مسرحيات شكسبير، وأصبح التمثيل كان أحد العناصر لتكوين شخصيته، فبفضله كان يتقن أداء فن الخطابة، ويتقن أدوار الأحداث ⁽²⁾. كما امتلك نواصي العلوم العصرية والاطلاع على الأنظمة في العالم المتمدن، وقد اختار فرنسا التي تعد مصدر الهامة "فقد تفرنس هذا العربي من أم رأسه إلى أخمص قدميه" ⁽³⁾ فيقول بهذا الشأن وإني شخصا منتوج الثقافة الفرنسية ولن أنساها. ⁽⁴⁾، وهو ما أثبتته شهادة " المؤرخ عبد الجليل التميمي" الذي يقول: "المتتبع لفكر بورقيبة وسلوكه منذ رجوعه من باريس رجل استثنائي بتكوين وبرؤيته للغرب وبتثريه بالفلسفة الغربية التنويرية بحضور المعارك السياسية والصحافية والبرلمان الفرنسي تغذى بورقيبة برؤية جديدة لم يتغذى بها ولا مسؤول عربي في ذلك الوقت." ⁽⁵⁾

فأصبحت خطاباته تحمل معاني الإشادة بالثقافة الفرنسية فهو يقول: "إن ما سوف يبقى على الدهر هو العلم الذي بثته الجامعة الفرنسية في الصدور، لا عن طريق عظماء أساتذة الحقوق والعلوم السياسية فحسب، بل كذلك عن طريق أولئك المعلمين المتواضعين

(1) آمال، (موسى): بورقيبة والمسألة الدينية، ص 30.

(2) محمد الهاشي، (عباس): المرجع السابق، ص 110-111.

(3) كاميل، (بيقي): المصدر نفسه، ص 43.

(4) محمد الهاشي، (عباس): المرجع نفسه، ص 110-111.

(5) انظر: شهادة التميمي، (عبد الجليل) في " زمن بورقيبة"، شريط وثائقي، قناة الجزيرة الحلقة الأولى، إنتاج محمد الهادي حناشي.

الذين منحوني الشهادة الابتدائية، وأحسنوا تكويني، عندما كنت طفلاً صغير السن، ففتحو لي أبواباً ولجتها وآفاقاً اندفعت فيها⁽¹⁾.

فتأثر بورقيبة بالفلسفة "الوضعية"، يصعب نفيه، أو التقليل من أهميته، ذلك أن مقولة أوغست كونت الشهيرة "الحياة من أجل الغير"، قد قرر بورقيبة "اتخاذها شعاراً له، منذ أن رآها منحوتة، بأسفل التمثال النصفي المقام للفيلسوف في مدخل السوربون"⁽²⁾.

فعلاقة بورقيبة باليقين وبالمطلق وبالمثل العليا، قد صاغها انطلاقاً من المذهب الوضعي، الذي جعله يولي أهمية قصوى للواقع وللتجربة، إلى درجة أنه يعتبر أن نشاط الفكر يفقد الأصالة والفاعلية معاً، إذا ما لم يتصف بالواقعية، ولم يلزم واقع الكون وأحداث الحياة، وذلك حتى يحلها، ويستنبط منها القوانين التي تمنح الإنسان سلطانه على الطبيعة، أو "إذا هو لم يلتزم الانكباب على الوضع الواقعي للإنسان، وانغراسه الزماني والمكاني، حتى يحقق له أسباب الكيان الكامل المنبثق من الواقع الراجع إليه"⁽³⁾.

وبلغ تأثر بورقيبة بالطريقة الوضعية مسافات بعيدة، حتى لكنها الطريقة الأكثر تجذراً في كيفية مقارنته للوقائع. فالنشاط الفكري لديه، يقتبس مادته من الكائنات والأحداث الواقعية⁽⁴⁾.

وهو ما جعل مفاهيم الجدوى والمنفعة والنجاعة، تمثل مفاتيح أساسية في خطاباته. وهي مفاهيم تعود مرجعيتها إلى المذهب الوضعي الذي تعلم منه طاعة الواقع، وأن الثورة لا يمكن أن تكون من خلق تلقائي⁽⁵⁾.

كما تعرف بورقيبة إلى العقلانية الفرنسية وفلاسفة عصر الأنوار، والأهمية التي يوليها التيار العقلاني لدور العقل، فمنهج "ديكارت" ومفاهيم "كانط"، قد تغلغلنا في عقل بورقيبة، وهو ما أكدّه في العديد من خطبه على ضرورة الاعتماد على العقل باعتباره المصدر

(1) بورقيبة، (الحبيب):، (خطب): ج 23 نشرات وزارة الاعلام، المطبعة الرسمية، تونس 1981، ص 248

(2) محمد، (الصياح): بورقيبة مؤسس الدولة الجديدة، تعريب علي الشنوفي، دار العمل، تونس مارس 1986، ص 218.

(3) بورقيبة، (الحبيب):، (خطب): ج 23 ص 161

(4) محمود، (الزوايدي): المرجع السابق، ص 146

(5) محمد، (الصياح): المصدر السابق، ص 218

الوحيد للمعرفة فيقول "تسيير الأمور على هدى من العقل وهميات أن يضل الطريق من كان دليله ورائده⁽¹⁾

لكن تأكيده على هذه السلطة المطلقة للعقل يمكن أن يخفي نوع من التضمين الذي يهدف إلى تحرير العقل من سلطة الدين وبتعبير أوضح سحب المقدس من الدين إلى العقل أي تاليه العقل وهذا الأخير لا يمكن في رأيه تحقيقه الأمن خلال تحرير الإنسان وتخليص العقول الفاسدة من مختلف العوائق التي لا تقتصر بالنسبة لبورقيبة على العادات والتقاليد البالية بل كذلك على الإيديولوجيات إذ أن الخطاب البورقيبي يدافع عن العقل الشمولي بوصفه أداة للتنوير والتقدم. فيقول: "أردت أن الفت نظركم إلى هذه المسائل حتى لا ينساق مركز البحوث والدراسات الاقتصادية والاجتماعية وراء نظريات ودعايات وأقاويل وهمية وحتى لا يكتفي بترديد أقوال "لنين وتروتسكي". ينظر بورقيبة إلى العقل باعتباره أداة للمعرفة اليقينية لذلك فهو لا ينطلق من منظومات فكرية جاهزة بل يتحرى المنهج العقلي - المنطقي- بطريقة برغماتية. فآمن أن العقل الرصين يوصل إلى الحقيقة⁽²⁾

إن مناصرة بورقيبة للعقلانية تفسر انجذابه الواضح، لدور العقل في حياة الإنسان وفي حياة المجتمع، ذلك أن الفرد عند "فولتار Voltaire". فالعقلانية الفردية التي اقتبس منها بورقيبة بدون حساب، كل مبادئه السياسية.

قد تضافرت مع اعتقاده في فكرة الخير الطبيعي التي تناولها "جون جاك روسو Rousseau"، وتوطدت مع مفهوم الخير الأعظم ونظرية الأخلاق عند كانط، والمتكونة من فرضيات الحرية وخلود الروح ووجود الله، فهو يرى أن الفرد" يندفع إلى عمل الخير إلى حد التفاني دون انتظار أجر أو مقابل، كلما ارتفع مستواه الذهني والخلقي"⁽³⁾.

لذلك ربما يصح القول بأن تشبع بورقيبة بالمذهب الوضعي وبالتيار العقلاني قد شكل فيه وعاء فكريا خاصا. واشتمل التكوين الثقافي لبورقيبة إلى جانب مفاهيم "العقل" و"الأخلاق" و"الأمة"، على مفاهيم من حقل، غير المذاهب الوضعية والعقلانية والليبرالية، وهي مفاهيم تعلن ولاءها الصارخ للفكر الاشتراكي الفرنسي، مثل العدالة وتكافؤ الفرص

(1) حبيب، (بورقيبة): بورقيبة حياته جهاده ص22.

(2) خطاب بورقيبة في بيروت بتاريخ 10 مارس 1965.

(3) حبيب، (بورقيبة): خطب ج 20، ص. 83.

والتوزيع العادل للثروة الوطنية، ونجد ظلالات لمثل هذه المفاهيم الاشتراكية، في إحدى خطاباتته إذ يقول، مدافعا عن فكرة أن توزيع الثروات وسيلة لإقرار العدل الاجتماعي، ومعبرا عن اشمئزازه من هذا التفاوت: "وقد فكر السياسيون، منذ أن وجد المجتمع، في تلافي هذه الحالة لما فيها من تفاوت بين الفقراء والثراء، تشمئز منه النفوس المجبولة على الحنان والرأفة، ولما في ذلك من خطر على الدولة، نابع مما ينتج عن هذا التفاوت من أحقاد وغضب وتمرد، يقابله من جهة أخرى الاحتقار، الأمر الذي جعل تاريخ البشرية⁽¹⁾، مليئا بالمآسي والويلات ... ذلك أن اختلال توزيع الثروة طالما حمل الفقراء على الثورة والاعتصاب، ودفع بهم إلى الانقضاض على الأغنياء، لاقتسام ثرواتهم. وطالما حمل الموسرين على دوس المعوزين ومعاملتهم معاملة العبيد".⁽²⁾

ويكشف بورقيبة في خطاب آخر عن "اشتراكيته" بصريح الاعتراف: "وأنا وإن كنت اشتراكيا، إلا أنني أخالف بقية المذاهب ولا أرى ضرورة الحرب بين البشر".⁽³⁾

إن بورقيبة، باقتباسه من الاشتراكية مفاهيم المصلحة العامة والتضامن، واستبعاده لمفهوم الصراع بين الطبقات، قد طمح إلى "بلورة مفهوم جديد للتضامن الوطني في تونس ... مكنه من خلق نوع جديد من الاشتراكية".⁽⁴⁾

ربما هذا التعلق بالفكر الغربي قد غير من نظرة بورقيبة إلى الاستعمار، حتى أنه أقر العزم على متابعة العمل الذي قام به المستعمر في "نواحيه الإيجابية".⁽⁵⁾ مضيفا في موقع آخر من نفس الخطاب أنه لا يحمل الاستعمار كل الأوزار. ولم تقتصر علاقة بورقيبة بالثقافة الفرنسية باقتباس المفاهيم والأفكار فحسب، بل إنها علاقة اتخذت أشكالا أخرى، منها التعبير عن إعجابه الشديد بعدد الشخصيات الفرنسية. فهو يرى أن شارل نيكول هو عالم جليل لا ينتسب لفرنسا فقط، وإنما هو ينتمي إلى الإنسانية قاطبة، فهو من الرجال القلائل الذين يشرفون الجنس البشري، والذين تعتبر حياتهم مثالا يقتدى به وموردا خصباً للعبير ولا تخلو خطاباته كذلك، من الإشادة بـ "ادغار فور" و"منداس فرانس وغيرهما.

(1) حبيب، (بورقيبة): خطاب، ج 7، ص 40

(2) نفسه، ص 243

(3) نفسه، ص 115

(4) Mistiri, (Ahmed) : La Pensée politique et sociale du président Habib Bourguiba, Tunis Imprimant, 2002, p.177.

(5) حبيب، (بورقيبة): المصدر نفسه، ص 244.

وإن كان برنامج بورقيبة السياسي والاجتماعي يعترف بأوغست كونت، وهيغل، وكانط وديكارت، كمصادر تأثير وإلهام. ونستطيع القول بأن بورقيبة قد "رسم بنفسه وبمجرد أن تجاوز سن الطفولة ملامح شخصيته في رسم أمين فقد اختار ثلاث شخصيات يمتحن فيها في امتحان شهادة البكالوريا. فاختار "فيكتوريقو" و"جان جاك روسو" وكلود برنارد، فهو شديد الولوع بأعلام الأدب الفرنسي، فيحلو له أن يردد مقولات مونتاني، وأن ينشد قصائد ألفريد دوفيني وفيكتور هيغو، بل أن الهدية الأولى التي قدمها لابنه الوحيد، هي جملة المؤلفات الكاملة لهذا الأخير⁽¹⁾.

وقد اختزل كامي لبيقي المصادر التي شكلت التكوين السياسي والثقافي لبورقيبة في هذا الثلاثي الفرنسي "إن هؤلاء الرجال الثلاثة: فيكتور هيغو الشاعر الملهم، وجان جاك روسو تاليف الإنسانية التي تحتفظ في "طبيعتها المحدودة، ومطالها اللامتناهية"، وكيانها المتشبث بالأرض وحنينها إلى السماء، وكلود برنارد الذي يعلم تفهم الحدث للسيطرة عليه، قد شغلوا مكانا هاما في حياة بورقيبة، وساهموا في تكوين شخصيته"⁽²⁾. كانت بمثابة سلاح واجه به مصاعب الحياة المهنية والسياسية.

الخاتمة

نستنتج مما سبق ما يلي:

- اختلفت الروايات عن نسب الحبيب بورقيبة فهناك من يرجعها إلى أصول البانية والبعض الآخر إلى أصول تركية، وأخرى، يونانية وليبية لكن هذه الأخيرة هي الأكثر قربا إلى الحقيقة. كون أن بورقيبة نفسه كمصدر يؤكد أصوله الليبية.
- الحبيب بورقيبة شخصية متأثرة بالفكر الغربي ومرجعته لم تكن تذهب إلى التاريخ الإسلامي بقدر ما ذهبت إلى التاريخ القديم متقمصا منه بطولية شخصيته.
- إن التكوين العلمي لبورقيبة وحصوله على شهادة جامعية من السربون في العلوم السياسية والقانون مكنه من مزاوله مهنة المحاماة للدفاع عن التونسيين من الظلم الاستعماري، وتكوينه في العلوم السياسية جعله بخوض غمار السياسة ضد نظام الحماية.
- واجه الحبيب بورقيبة عدة صدمات عنيفة في صغره كان لها أعظم الأثر في نفسيته

(1) كامي، (بيقي): رسالة بورقيبة، ص 54.

(2) نفسه، ص 55.

زعزعت كيانه.

- ثقافة بورقيبية هي ثقافة مزدوجة، يجمع بين الأصالة والحداثة لكن تشدقه بالغرب جعله أكثر ميولا إلى الحضارة الغربية وبالأخص الفرنسية.

المراجع

المذكرات والكتب:

- آمال، (موسى): بورقيبية والمسألة الدينية، دار النشر سيران، تونس، 2006.
- بلخوجة، (الطاهر): الحبيب بورقيبية سيرة زعيم شهادة على عصر (مطبوعة علامات، تونس، 1989).
- بورقيبية، (الحبيب): (خطب): ج 20، ج 7، ج 23 نشرات وزارة الاعلام، المطبعة الرسمية، تونس 1981،
- بورقيبية، (الحبيب): لحبيب بورقيبية: حياته جهاده، كتابة الدولة للإخبار والإرشاد، تونس، 1966..
- ثامر (الحبيب): هذه تونس، تقديم الرشيد إدريس، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط1، 1988.
- روف، (فيرنر): البورقيبية والسياسة الخارجية لتونس المستقلة، ترجمة صبحي الثابت، المطبعة العصرية تونس 2011.
- الشاذلي، (عمر): بورقيبية كما عرفته تعريب علي حمويت، تونس، 2013.
- شاكرا، (عبد المجيد) خمسون سنة...عشت معركة بنزرت (المطبعة المغاربية، دار محمد علي للنشر للطباعة 2011).
- الشريف، (محمد فريد): مذكرات دبلوماسي 40 سنة في خدمة الدبلوماسية التونسية، 1959 / 1996، (المطبعة العصرية تون 2006).
- الصافي (سعيد): بورقيبية سيرة شبه محرمة (رياض الرايس للكتب والنشر بيروت لبنان، 2000). ط 1
- الصياح، (محمد): محمد الصياح الفاعل الشاهد (سراس للنشر تونس 2012).
- عباس، (محمد الهاشي): بورقيبية نوية: ذكريات ومذكرات (ميدياكوم للنشر ط1، تونس، 2010، ج3،

- علي (المحجوبي): جذور الحركة الوطنية التونسية، تعريب عبد الحميد الشابي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، قرطاج 1999، ط1
- عمار السوفي: تاريخ الحركة الوطنية التونسية: وثائق الدستور الجديد إزاء المحنة الأولى، دار العمل تونس 1979
- قايد السبسي، (الباجي): الحبيب بورقيبة: المهم والأهم، ترجمة محمد معالي (دار الجنوب للنشر تونس 2011).
- كاميل، (بيقي): رسالة بورقيبة، ترجمة رياض المرزوقي، وتوفيق بن عامر، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله.
- لقلبي (الشاذلي): أضواء من الذاكرة: لحبيب بورقيبة (مطبعة سيمباكت، تونس 2014 ترجمة محمد معالي).
- محمد، (الصباح): بورقيبة مؤسس الدولة الجديدة، تعريب على الشنوفي، دار العمل، تونس مارس 1986، 218.
- محمود، (الذواوي): التخلف الآخر الأطلسية للنشر، تونس جانفي 2002،
- مزالي، (محمد): نصيبي من الحقيقة (دار الشروق، القاهرة، مصر، 2007) ط1.
- المستيري، (احمد): شهادة للتاريخ، (مطبعة الجنوب، تونس، 2011).
- المنصر (عدنان): دولة بورقيبة: فصول في الإيديولوجية والممارسة 1956/1970، دار امال للنشر والتوزيع تونس 2007 ط الأولى.
- موسى، (أمال): بورقيبة والمسألة الدينية (2006).
- الشهادات الحية:
- لقاء خاص مع بشير بن سلامة. يوم 28 / 12 / 2011 بمقر سكناه بالمدين الجديدة بتونس العاصمة.
- لقاء خاص مع طاهر بلخوجة يوم 20 ماي 2015 بمنزله الكائن بنهج اليان صفاري ببلفيدار بتونس العاصمة.
- لقاء خاص مع طاهر بلخوجة. يوم 20 / 05 / 2015 بمنزله الخاص الكائن شارع اليان صفاري بمدينة بلفيدار بتونس العاصمة.
- شهادة التميمي، (عبد الجليل) في " زمن بورقيبة"، شريط وثائقي، قناة الجزيرة الحلقة الأولى، إنتاج محمد الهادي حناشي.

- شهادة محمد المصمودي في "زمن بورقيبة" (وثائقي من إنتاج قناة العربية)، الحلقة الأولى، 2011.

الأرشيف الرسمي:

- أرشيف مركز التوثيق القومي ببيوغرافيا الشخصيات تحت رقم: 171 / 000. لحبيب بورقيبة رقم 4-18 / 029 A.

الأنطروحات:

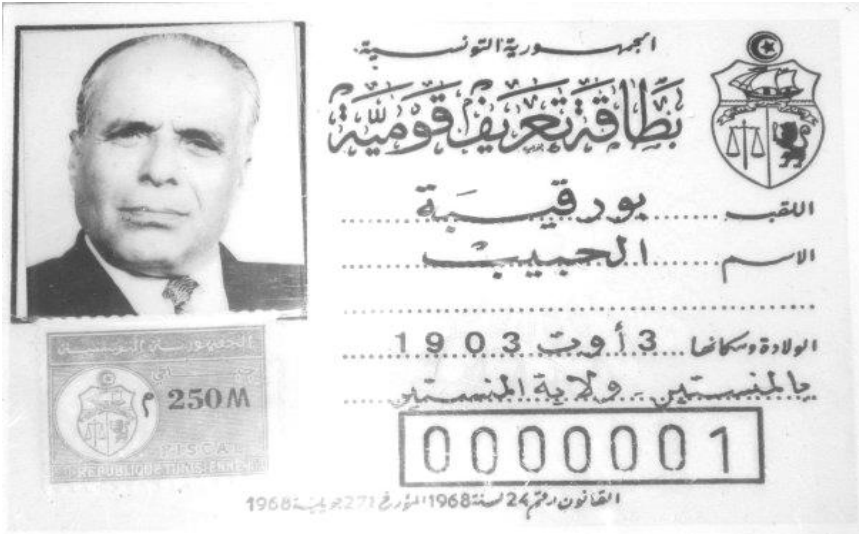
- معزة، (عزا لدين): فرحات عباس والحبيب بورقيبة: دراسة فكرية وتاريخية مقارنة 1899/2000 أطروحة دكتورة جامعة منتوري قسنطينة 2009. (نسخة الكترونية لا تحتوي على أرقام الصفحات)

- Mistiri, (Ahmed) : La Pensée politique et sociale du président Habib Bourguiba, Tunis Imprimant, 2002, p.177.

- Tahar, (Belkhodja): Les trois décennies Bourguiba, Ed arcantres – publisud 1999, p30.

الملاحق:

ملحق الوثائق الشخصية لبورقيبة بطاقة التعريف الوطنية⁽¹⁾



الملاح الفيزيائية لبورقيبة صادرة عن السكريتاريا العامة للأمن العمومي الفرنسي.⁽¹⁾

PROTECTORAT FRANÇAIS
Gouvernement Tunisien
SECRETARIAT GENERAL
SURETÉ PUBLIQUE
N° 788

① Tunis, le 3 Novembre 1924

NOTICE A-4-18

Pour l'établissement et le visa des Passeports
par la Section d'Etat (Gouvernement Tunisien)

Nom HABIB BEN ALI
Prénoms BOU - REGUIBA
Surnoms
Nationalité Tunisien
Né le 3 Août 1903
à MONSTIR
Caidat de
Contrôle de SOUSSE
Fils de Ali ben Hadj Mohamed
et de Fatma bt Ahmed
Marié à } Celibataire
le
Nombre d'enfants —
Profession Etudiant
Domicile Rue Medersa Esschmania N° 10
TUNIS

Taille } moyennes
Corpulence }
Cheveux } noirs
Sourcils }
Front haut
Yeux Chat clair
Nez, Bouche } moyens
Barbe } rasée
Menton rond
Visage ovale
Teint brun
Marques particulières:
;;.....

RENSEIGNEMENTS

Renseignements } Date de son arrivée en Tunisie:
concernant } D'où vient-il ?
les étrangers } Quel métier a-t-il exercé depuis son arrivée en Tunisie:

Papiers d'identité et autres pièces nécessaires pour l'établissement du Passeport;
déclare avoir payé sa taxe personnelle.

CENTRE de DOCUMENTATION
NATIONALE
MOUVEMENT
NATIONAL